17 ème Année No. 820

Lundi — 21 — 3 — 1949

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH

Revue Hebdomadaire Litteraire Scientifique et Artistique

ثمن العدد ٢٠ مليما

صاحب المجلة ومديرها ورئيس تحريرها المسئول

احمد حسن الزيات

الادارة

دار الرسالة بشارع السلطان حسين رقم ٨١ — عابدين — القاهرة

تليفون رقم ٤٢٣٩٠

بدل الاشتراك عن سنة

١٠٠ فى مصر والسودان

١٥٠ فى سائر الممالك الأخرى

الاعلانات

يتفق عليها مع الإدارة

العـــدد ٨٢٠ « القاهرة فى يوم الاثنين ٢٠ جمادى الأولى سنة ١٣٦٨ — ٢١ مارس سنة ١٩٤٩ « السنة السابعة عشرة

هل الشقاق طبع فى العرب ؟

جواب عن سؤال

للأستاذ أبى خلدون ساطع الحصري بك

(بقية ما نشر فى العدد الماضي)

وأما ما ذكرتموه عن رأى ابن خلدون فى هذه القضية ، فهو أيضاً فى حاجة إلى إنعام النظر .

فقد نقلتم الفقرات التالية ، من مقدمة هذا المفكر العظيم :

« والعرب أصعب الأمم انقياداً بعضهم لبعض ، للغلظة والأنفة وبعد الهمة والمنافسة فى الرياسة ؛ قلما تجتمع أهواؤهم . من أجل ذلك لا يحصل لهم الملك إلا بصبغة دينية من نبوة أو ولاية أو أثر من الدين على الجملة » .

أنا أعرف أن ابن خلدون أبدى هذا الرأى فى مقدمته المشهورة ، ولكنى أرى من الضرورى أن نفطن جيداً إلى مايقصده من كلمة العرب الواردة فى هذه الفقرات ؛ ثم نبحث عن نصيب رأيه هذا من الصحة والصواب .

من الأمور التى يجب أن تبقى نصب أعيننا على الدوام — حين نقرأ مقدمة ابن خلدون ونستشهد بها — أن مؤلفها كان يقصد من كلمة « العرب » العربان بوجه خاص وفقاً لما هو متعارف بين العوام — ؛ ولم يقصد قط أفراد الأمة العربية بوجه عام كما نفهمها ونتصورها نحن الآن .

إننى سردت الأدلة الكثيرة التى تبرهن على ذلك برهنة قاطعة فى عدة مقالات نشرتها فى بيروت وبغداد وفى فصل خاص من الدراسات التى كتبتها عن مقدمة ابن خلدون ، ولا أرى لزوماً إلى إعادة تلك البراهين والأبحاث فى هذا المقام . ولما كانت الدراسات المبحوث عنها قد نفدت ، رأينا أن ننقل هنا نموذجين من البراهين المسرودة فيها ، وقد انتخبنا أحدهما من القسم الأول من المقدمة ، والثانى من القسم الأخير منها ، قلت :

« فلنلاحظ الفصل الذى يقول فيه ابن خلدون « إن العرب إذا تغلبوا على أوطان أسرع إليها الخراب » ولنمعن النظر فى الأدلة التى يذكرها لتعليل رأيه هذا :

« فنهاية الأعمال البادية كلها عندهم الراحة والتقلب ، وذلك مناقض للتكون الذى به العمران ومناف له . فالحجر مثلا إنما حاجتهم إليه لتسنيم أثافى القدر فينقلونه من المبانى فيخربونها عليه ، ويسدونه قبالك . والخشب إنما حاجتهم إليه ليعمروا به خيامهم ويتخذوا الأوتاد منه لبيوتهم فيخربون السقف عليه . . » (ص ١٤٩) .

ومن البديهى أن مدار البحث هنا لا يتعدى البدو الذين يعيشون تحت الخيام . ولا مجال للشك فى أن ابن خلدون عندما كتب هذه العبارات وقال « لا يحتاجون إلى الحجر إلا لوضع

القدور ، ولا إلى الخشب إلا لنصب الخيام » لم يفكر قط فى أهل دمشق أو القاهرة ، ولا بسكنة تونس أو فاس . إنما قصد أعراب البادية وحدهم . وقال :

« وقد كنا تقدمنا أن الصنائع من منتحل الحضر ، وأن العرب أبعد الناس عنها . وصارت العلوم لذلك حضرية ، وبعد العرب عنها وعن سوقها » (ص ٥٤٤) .

يلاحظ أن ابن خلدون يذكر هنا كلمة العرب مرتين مقابلا لكلمة الحضر ، بشكل لا يترك مجالا للشك فى أنه يقصد منها البدو على وجه التخصيص ويخرج من نطاق شمولها الحضر على الإطلاق . غير أنى أرى من الضرورى أن ألفت الأنظار إلى موضع الفقرات الآنفة الذكر من أبحاث المقدمة : إن تلك الفقرات مستخرجة من الفصل السابع والعشرين من الباب الثانى ؛ وعنوان الباب المذكور هو : « العمران البدوى والأمم الوحشية والقبائل وما يعرض فى ذلك من الأحوال » . وذلك أيضاً يدل على أن ما جاء فى هذه الفقرات ينصب على الذين يعيشون فى حالة البداوة ، ولا يشمل الذين يعيشون فى المدن . ومن المعلوم أن أحوال المدن والدول تكون موضوعات البابين الثالث والرابع من المقدمة . والفقرة الآنفة الذكر لا تدخل فى نطاق البابين المذكورين .

وبناء على كل ما تقدم يحق لنا أن نعبر عن رأى ابن خلدون فى هذه القضية — وفق أسلوب كلامنا الحالى — بالعبارات التالية : « إن العرب — عندما كانوا فى حالة الفطرة والبداوة — لم يستطيعوا أن يؤلفوا دولة ويؤسسوا ملكا ، إلا عندما تأثروا بدين أو ولاية تزيل منهم التحاسد والتنافس ، وتحطهم على الانقياد والاجتماع » .

ومن الغريب أن كلمات ابن خلدون فى هذا المضمار — عندما تفرغ فى هذا القالب — تصبح موافقة تمام الموافقة للنظرية التى توصل إليها علماء الاجتماع فى العصر الحاضر عن منشأ الملك بوجه عام : لأن أصحاب هذه النظرية يقولون إن الممالك لم تتكون فى بادىء الأمر إلا بفضل المعتقدات الدينية .

إن الأبحاث التى قام بها عدد كبير من العلماء والمفكرين — مستندين إلى المعلومات التى جمعوها عن أحوال الأقوام البدائية من جهة ، وعن تواريخ الدول القديمة من جهة أخرى — قد أوصلتهم إلى هذه النظرية . فقالوا : إن تكون الجماعات السياسية الكبيرة والممالك العظيمة ، فى القرون القديمة ، لا يمكن أن يفسر إلا بتأثير الاعتقادات الدينية ، على اختلاف أنواعها وأطوارها . فالاعتقاد بقوى خارقة للعادة — من الاعتقاد بالقوى السحرية إلى الإيمان بالقوة الإلهية — هو الذى مهد السبل إلى تكون الجماعات الكبيرة واستقرار الحياة السياسية .. فى أطوار البداوة والهمجية .

وقد كتب الباحث الإنكليزى المشهور « فرازر » كتاباً ضخماً ضمنه أمثلة وبراهين كثيرة ، تدل على أن الملكية نشأت من الاعتقادات السحرية : كان الناس يخضعون للملك ، لاعتقادهم بأنه يتمتع بقوة سحرية ، وكانوا يرون من الطبيعى أن يخلفه ابنه ، لاعتقادهم بأن هذه القوة السحرية تنتقل منه إليه .

وقد برهن المؤرخ الفرنسى المشهور « فوستل دو كولانج » — فى كتابه « المدينة القديمة » — أن الحياة السياسية عند اليونان والرومان أيضاً قامت على بعض الاعتقادات والعبادات .

وقد لاحظ جميع المؤرخين أن الاعتقادات الدينية لعبت دوراً هاماً فى سياسة دول القرون الأولى . والاعتقادات الدينية السياسية اجتازت مراحل عديدة ومتنوعة : الملك إله — الملك ابن الإله — الملك من نسل الآلهة — الإله يتقمص جسد الملك — الإله ينفخ فى الملك شيئاً من روحه — الإله يمد الملك بالهاماته — هذه أشكال مختلفة — وأطوار متتالية — من الاعتقادات التى كانت تربط الملكية بالدين ، وتساعد على جمع طوائف كبيرة من الناس تحت إدارة واحدة فى تلك القرون القديمة .

أنا لا أرى هنا مجالا لذكر الأمثلة والبراهين والنصوص التى تؤيد هذه النظرية . ولذلك سأكتفى بالإشارة إلى كتاب « تيارات التاريخ العالى العظيمة » الذى نشره أخيراً « جاك بترن » أستاذ التاريخ فى جامعة بروكسل . تصفحوا المجلد الأول من هذا الكتاب القيم ، (وهو المجلد الذى يلخص التطورات التاريخية التى حدثت فى العالم منذ القدم حتى ظهور الإسلام) ،

تجدوا فى كل فصل من فصوله تقريباً بعض الأبحاث التى تتم عن الترابط المتين الذى كان قائماً فى تلك العصور القديمة بين تطور الحوادث السياسية وبين تقلب المعتقدات الدينية .

لا شك فى أن الحروب كانت تلعب دوراً أساسياً فى توسع الممالك وتكون الامبراطوريات : فإن ملك قطر من الأقطار يستولى على مدن وأقطار أخرى بقوة السلاح ، ويوسع حدود ملكه عن طريق الفتوح العسكرية . غير أن نتائج هذه الفتوح ما كانت تدوم وتستقر ، إلا إذا دعمها شىء من التفاعل والتزاوج والتلاقح بين معتقدات البلاد الفاتحة وبين معتقدات البلاد المفتوحة ، وهذا التفاعل كان يأخذ أشكالا مختلفة : تارة كان الاعتقاد ينتشر بأن آلهات جميع تلك البلاد لا يختلف بعضهم عن بعض إلا بالأسماء ؛ فكان يصبح الملك ممثلا لآلهة البلاد الفاتحة والمفتوحة على حد سواء . وطوراً كان يتولد الاعتقاد بأن إله الملك الفاتح هو الإله الأكبر . وأما آلهة البلاد المفتوحة فهى من أتباع ذلك الإله الأعظم — وعلى كل حال كانت هذه المعتقدات — وأمثالها من المعتقدات المتنوعة — تساعد إلى حد كبير على خضوع أهالى البلاد المفتوحة للحكم الجديد خضوعاً نفسياً ، فكانت تقلل أو تزيل الحاجة إلى استعمال القوة والقسوة لإدامة ذلك الخضوع .

ولا أرانى فى حاجة إلى القول بأن أمثال هذه المعتقدات الدينية السياسية ، ما كان يمكن أن تدوم بعد انقضاء عهود الوثنية القديمة ، ومع هذا أرى من الضرورى أن أشير إلى نظرية « سياسية دينية » سادت على الأذهان فى أوروبا — فى عهد تكوين الممالك — حتى القرن الثامن عشر : وهى النظرية القائلة « بأن الملوك يحكمون بتفويض من الله » . ومما لا مجال للشك فيه أن هذه النظرية كانت بمثابة « الأصداء الأخيرة » لتلك المعتقدات القديمة التى شرحناها آنفاً .

وخلاصة القول أن الأبحاث التاريخية والاجتماعية تدل دلالة قاطعة على أن خضوع الناس إلى أحكام السلطات ، لم يتيسر فى بادىء الأمر — إلا بفضل المعتقدات الدينية .

ويظهر من ذلك — بكل وضوح — أن ما قاله ابن خلدون فى مقدمته المشهورة ، عن العرب فى طور البداوة ، لا يختلف عما يقوله العلماء والمفكرون المعاصرون عن الأمم القديمة بوجه عام .

فنستطيع أن نقول — بكل تأكيد — أن تاريخ العرب لا يشذ عن تواريخ سائر الأمم ، من هذه الوجهة أيضاً .

* * *

بعد هذه النظرات الانتقادية التى وجهناها إلى المقدمات التاريخية ، يجدر بنا أن نرجع إلى السؤال الأصلى ، لنرى : هل الشقاق طبع فى العرب ؟

إن المقارنات التى قمنا بها آنفاً بين تاريخ الأمة العربية وبين تواريخ الأمم الأخرى من وجهة الشقاق ، تسهل علينا الإجابة عن هذا السؤال إجابة مبنية على قياس صحيح واستقراء تام .

إن الشقاق وليد الأنانية ، والأنانية طبع غريزى فى الإنسان ، وجماح هذه الأنانية لا يكبحها إلا التربية الاجتماعية المتينة ، والتشكيلات الحكومية القوية ، والنزعة المثالية الفعالة ، والإيمان الدينى أو القومى أو الوطنى العميق .

فى كل أمة من أمم الأرض ، وفى كل دور من أدوار التاريخ يظهر أناس تتغلب فى نفوسهم الأنانية على العوامل التى ذكرناها آنفاً ، ولكن الرأى العام من جهة ، والقوانين الموضوعة من جهة أخرى ، تعاقب هؤلاء وتعزلهم عن المجتمع بصور شتى ووسائط متنوعة ، وتجعلهم عبرة للآخرين ، فتحول بذلك دون استفحال هذه الأنانية وانتشارها بين الناس .

غير أنه يأتى أحياناً فى كل أمة من أمم الأرض بعض الأدوار من التاريخ تضعف فيه هذه القوى الوازعة فتتغلب الأنانيات من عقالها ، وبتضاءل تأثيرات الرأى العام فيها ، فتفقد سلطة الحكومات عليها ، وكل ذلك يؤدى إلى ازدياد الشقاق وانتشار الخلاف بين الناس .

هذا ما حدث ، وما يحدث ، وما سيحدث فى كل أمة من الأمم ، وفى جميع أدوار التاريخ .

وليس فى طباع العرب ما يجعلها شاذة عن سائر الأمم فى هذا المضمار .

هذا هو جوابى ، يا صديقى الأستاذ ، عن السؤال الذى وجهتموه إلى .

لا يوجد فى طباع الأمة العربية ما يجعلها شاذة عن سائر

الأمم فى أمر الاتفاق والانشقاق .

يجب علينا أن نعرف ذلك حق المعرفة ، كما يجب علينا أن نعتقد اعتقاداً جازماً بأن طبائع الأمم لا تبقى على وتيرة واحدة على مر العصور . وقد صدق من قال : « إن من يتوهم الاستقرار فى طبائع الأمم كمن ينشد البقاء فى الموجات التى تحدث على سطح الماء عند ما نرمى حجرا فيها » .

فإن الماضى لا يقيد الحال تقييداً مطلقاً . وتحقق الوحدة والاتفاق فى الماضى لا يكفى لدرء أخطار التفرقة والشقاق فى الحال ، كما أن حدوث التفرقة والشقاق فى الماضى لا يمنع الاتحاد فى المستقبل .

فيجب علينا أن نتخلص من نزعة الانشغال بالماضى كثيراً ، وأن نقلع عن الالتفات إلى الوراء دائماً . فلا يجوز أن نحاول تبرير مساوئنا الحالية بنقائص أسلافنا الأقدمين ، ولا أن نسعى لإلقاء مسئولية نكباتنا على عاتق تاريخنا القديم ، ولا يسوغ لنا — على وجه خاص — أن نستسلم إلى دواعى الخور والكسل ، وأن نتقاعس عن الكفاح والعمل ، بحجة أن الحالة الحاضرة نتيجة حتمية لطبائع الأمة ولمجرى تاريخها العام .

إننا لم نستجمع قوانا المادية والمعنوية ، ونحشدها لتحقيق هدفنا الأسمى ، بل إنما عملنا بتراخ وتردد بدون عزم قوى وتنظيم متين وإيمان عميق ، فأضعنا بذلك فرصاً كثيرة ،

ومهما يكن الأمر ، يجب علينا أن لا نقطع الأمل فى النجاح فى المستقبل ، وأن لا نتأخر عن إعادة الكرة بإيمان أعظم ، إذ يجب علينا أن لا ننسى أنه ما من أمة وصلت إلى الكمال الذى تنشده إلا بعد أن اجتازت عقبات كثيرة ، وذاقت مرارة الفشل مرات عديدة ، واضطرت إلى تضحيات كبيرة .

إن الأمم الحية الواثبة تحبط بالنكبات فتندفع إلى العمل وتواصل الكفاح بحرارة أشد وعزم أمتن ، كما أنها تغضب من الفشل وتستفيد من دروسه فتعيد الكرة لتضمن النجاح ولو بعد حين .

وأستطيع أن أقول : إن الإيمان القوى العميق بإمكانيات أمتنا ، والعمل الحازم المتواصل لتحقيق غايتنا ، والاستعداد التام للكفاح مصحوباً بروح التضحية الحقيقية ، ومدعوماً بالأمل الذى لا يقهر !

* * *

، وكأنى أسمع سلسلة أسئلة اعتراضية تقابل ما قلته آنفاً :

؟ ألا تلاحظ فظاعة الاختلافات التى تهز كيان جامعة الدول العربية هزاً عنيفاً ؟ ألا تشعر بالأخطار التى صارت تهدد مستقبلنا فى عقر دارنا ؟

بلى ، إنى أدرك وأشعر وألاحظ كل ذلك إدراكا تاماً وشعوراً عميقاً وملاحظة دقيقة ، وأتألم من كل ذلك ألماً شديداً .